

الأربطة

د/ محمد نجيب خالف

أستاذ محاضر

معهد الآثار - جامعة الجزائر

ملخص :

يتناول المقال مفهوم الرباط من حيث اللغة ونشأته في بلاد المغرب بكل أشكاله المعمارية والوظيفية، مع دراستها أثريا حسب ما كشفتته الحفريات الأثرية، وأنواعها الهندسية في كل بلاد المغرب الإسلامي، من أجل ترسيخ الحضارة الإسلامية فيها، بعد ما تمكن المسلمون من القضاء على الوجود البيزنطي.

تمهيد:

الرباط في الأصل: الإقامة على جهاد العدو بالحرب، وإرباط الخيل وإعدادها، والرباط أصل رابطة أي لازمت، وقد جاء معناها في القرآن الكريم قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وربطوا¹. وأصل كلمة الرباط من مرابط الخيل وهو ارباطها بإزاء العدو من أجل مقاتلته هذا من الناحية اللغوية.

أما من ناحية الاصطلاح، فإن الأربطة هي الحصون والمدن التي يرباط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الله، وللدفاع عن أرض الإسلام وحماية الدعوة، وهي مؤسسات تقطنها حاميات من المجاهدين، يدافعون عن أرض الإسلام تعبدا وتدينا²، دون الطمع في أجر يقدمه سلطان أو حاكم. لذا فإن الأربطة لا يقطنها جنود محترفون، وإنما يقطنها مؤمنون يقومون بأعمال مختلفة لكسب قوتهم وينظمون أوقاتهم بين التعب والدراسة والتمارين الرياضية والعسكرية. جرت العادة أن يصطحب المرابط المجاهد عائلته، فيعيش معها عيشة الزاهد المجاهد الواقف في وجه العدو، ينتظر النداء لينفر للجهاد مدافعا عن أمته ودينه.

علما أن أغلبية الأربطة تقع على السواحل، بخلاف الحصون والقصبات والثغور التي عادة ما تكون برية. لعبت الأربطة دورا هاما في الدفاع على سواحل أرض الإسلام. حيث شحنت بأعداد كبيرة من المجاهدين المتطوعين المتناوبين، لمراقبة العدو البحري وحراسة حدود الإسلام البحرية.

عرفت الأربطة في القرون الأولى للإسلام، تنظيما وتنسيقا متناهما في الدقة، وسيرت في إطار استراتيجية محكمة، على الرغم من تناوب المتطوعين وقلة التمويل إلا أنها كانت تمتلئ في رمضان وفي المواسم الدينية، كما أنها كانت تعتمد في اقتصادياتها، على ما تعتمد عليه التجمعات العمرانية الأخرى من زراعة وتجارة وحرف، فأغلب من يقطنها كان يقوم بالاسترزاق لكسب قوت أهله، زيادة على المناوبة في أعمال الحراسة. وكلهم كان على أهبة الاستعداد عندما يطرق العدو سواحل الإسلام، فإذا لاحت سفن المسيحيين في الأفق، نفروا جميعا للوقوف أمامها، وأنذروا ما يليهم من الأربطة والمدن والقبائل بالخطر الداهم، لكي لا يغدر بهم ويؤخذوا على حين غرة³.

(I) الربط في بلاد المغرب:

شهدت بلاد المغرب الفتوحات الإسلامية الأولى بعد مرحلة طويلة من الاحتلال البيزنطي⁴. وقد وصلت جرائد الخيل الأولى إلى تخومها في سنة (27 هـ / 647 م) كما تميز الفتح الإسلامي لها، بصعوبته، وطول مدته، وكثرة الخسائر من الجانبين⁵.

تمكن المسلمون في مرحلة قصيرة من الزمن، من إنزال الهزيمة النهائية بالجيوش البيزنطية رغم تحالفها مع البربر⁶. لكن فتح بقية البلاد وخاصة المناطق البربرية منها كان أدهى وأمر، وتطلب من القيادات الإسلامية المتعاقبة على الخلافة طول النفس وكثرة الجلد والصبر⁷.

لقد حدد المسلمون أهدافا سامية لعملية الفتح كان أهمها:

1 - الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ودحر الكفار والمشركين، وإيصال الرسالة المحمدية إلى أقاصي الأرض⁸، وسنبيين من خلال هذا البحث، أن الجهاد هو أكبر دافع لإنشاء هذا الجهاز الدفاعي الضخم، الذي كانت وظيفته الأساسية حراسة الحدود البحرية الإسلامية والدفاع عنها⁹.

2- توطيد الديانة الإسلامية ببلاد المغرب وتأكيد عملية الفتح، وتوثيق نظام الخلافة بها، حيث تمكن الفاتحون الأوائل بعد مرحلة شاقة اتصفت بالتذبذب أثناء عملية الفتح، من الانتصار والسيطرة على أرض المغرب التي أضحت مع الوقت دار سلم وولاية إسلامية كاملة الحقوق¹⁰.

كما أننا سنخصص هذه الدراسة لإبراز أهمية الأربطة في الدفاع على أراضي المغرب الإسلامي.

حانت مرحلة الحصاد بعد مدة من الحرث والزرع الطويلين:

فبعد رفض سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فتح بلاد المغرب لأسباب إستراتيجية. عمل سيدنا عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على إرساء سياسة جديدة¹¹ عمدت لتوطيد الفتح على استقرار المسلمين الفاتحين بالمنطقة، وإنشاء مدينة هجرة في كنفه واعتماد سياسة نشيطة في نشر الدين الجديد بين أهلها.

عمل القادة المسلمون بعد فتح بلاد المغرب على تنظيمها وتأمينها، لذا أعادوا توظيف بعض الحصون والمدن ذات الأصول الرومانية البيزنطية، بعد صيانتها وترميمها¹² لكونها أنشئت على مواقع إستراتيجية كما أنها محصنة طبيعيا. هذه التخوم أوكلت لها مهمة الدفاع والعمل على توسيع الولاية الإسلامية الناشئة التي كانت عاصمتها القيروان. كما عمد القادة المسلمون على تشجيع إنشاء سلسلة من الأربطة للدفاع على حدود الإسلام البحرية¹³.

(II) الأربطة بإفريقية:

كانت مهمة هذه الأربطة دفاعية أوكل لها مهمة التصدي لكل عملية إنزال بيزنطي على سواحل إفريقية¹⁴. علما أن السيطرة البحرية في حوض المتوسط الشرقي منها والغربي كانت للبيزنطيين أول الأمر، ثم أصبحت للمسلمين بعد ترسمهم في الفنون البحرية وفتحهم لصقلية¹⁵، وسيطرتهم بعد طول عناء على جل جزر الحوض الغربي للمتوسط¹⁶.

لقد اشتهرت جزيرة صقلية بغناها الكبير وبكونها جسرا يربط أرض الإسلام بالأراضي المسيحية، فهي بوابة البحر الأبيض المتوسط، فمن تمكن منها سيطر على المواصلات البحرية بين حوضيه وأصبح الأمر فيه والنهائي¹⁷.

كما كانت صقلية تمثل الكثير للمغاربة، فهي مكان لتجمع للقوى المعادية الطامعة في إعادة احتلال المغرب أو مهاجمته وإلحاق الضرر بأهله. كما كانت الجزيرة تستخدم كقاعدة انطلاق للعديد من الحملات البيزنطية ضد شواطئ إفريقية¹⁸، حيث زرعت الغارات المنطلقة منها الخوف وقلة الأمن في النفوس وثبتت العزائم، وأصبح سكان السواحل يعيشون حياة يملؤها القلق واللا أمن. دفعت كل هذه الأمور أولي الأمر إلى وضع إستراتيجية عسكرية للدفاع على أرض الإسلام وحدوده

البحرية، اعتمدت هذه الاستراتيجية الجديدة، على روح الجهاد الجياشة لدى المغاربة وحبهم الكبير للدين الجديد وإيمانهم الراسخ أن الجهاد عماده وخاصة عندما يدق العدو أرض الإسلام¹⁹.

انطلق المجاهدون من كل جهة وصوب جامعين للأموال، ومنشئين لعدد كبير من الأربطة للدفاع عن دين الله وصد عدوه. فأسسوا أعدادا هائلة من الأربطة تركزت في غالبيتها²⁰ على سواحل إفريقية. عرف القرن التاسع بناء أعدادا هائلة من الأربطة، تركزت في غالبيتها في الساحل من الإسكندرية إلى طبرقة وشواطئ الجزائر الشرقية²¹. هذا الأمر جعل المؤرخ المشرقي ابن الأثير يقول، عن أبي إبراهيم بن أحمد أنه "عامل الشعب برفق وأجزل العطاء للجند وقام ببناء عشرة آلاف حصن²² بالحجارة والجير وبأبواب من حديد".

يذكر المؤرخون أن هذه الأربطة قامت بوظائفها المختلفة على أحسن وجه، فساهمت مساهمة مباركة في الدفاع عن أرض الإسلام وأيقظت في نفوس عامة المسلمين روح الجهاد، وقامت بدور أساسي في نشر ثقافة الإسلام بالتعليم الذي كانت تقدمه. كما عملت على تأهيل الأمة وتدريبها على التقنيات الحربية وصحت الضمائر وأوجدت فيها روح العزة. لقد سرى الخراب إلى عدد هائل من هذه الأربطة²³ عندما أستغني عن استعمالها، أو عندما ساد الأمن بعد سيطرة المسلمين الكاملة على البحر الأبيض المتوسط. وتطور عدد آخر من هذه الأربطة ليصبح قرى ومدنا صغيرة ومتوسطة هذا هو حال سوسة²⁴ والمنستير.

أ- أهمية الأربطة في إستراتيجية الدفاع على سواحل المغرب

يذكر المؤرخون والجغرافيون أعدادا كبيرة من الأربطة، ساهمت مساهمة محمودة في الدفاع عن السواحل الإفريقية²⁵. ولعبت دورا أساسيا في الاستراتيجية الدفاعية التي وضعتها السلطات المختلفة التي حكمت بلاد المغرب الأدنى²⁶، علما أن هذه الاستراتيجية تطورت وتحورت مع تطور الموقف العسكري في حوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فمن موقع دفاعي أعتمد فيه على الأربطة والمرابطين وعلى جيش بري للوقوف أمام الزحف البيزنطي²⁷، في المرحلة الممتدة من الفتح الإسلامي للمنطقة، حتى ظهور الدولة الأغلبية، إلى موقف هجومي عندما تمكن المسلمون من استحداث أسطول عسكري²⁸، وتدريبوا على ركوب البحر وتمرسوا على تقنياته²⁹. أصبحت وظيفة الأربطة عند ذلك هجومية، فأضحت أماكن لتجمع المجاهدين على سواحل البحر ونقاط ارتكاز لهم: منها يخرجون مجاهدين في سبيل الله جهادا بحريا يغزون أرض الإفرنجية وبيارزون أساطيلهم ويأسرون أبطالهم، وفي هذه المرحلة الهجومية بالذات من الجهاد البحري فتح الله على المسلمين جزيرة صقلية، التي كانت مفتاح الحوضين الشرقي والغربي للبحر المتوسط. تميز فتح صقلية بكونه جاء نتيجة حتمية لمسار طويل في العلاقات التي ربطت الدول الفاعلة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط³¹، حيث اتصف هذا المسار:

إما بالغارات والغزو بين المتنافسين، للسيطرة الكلية على هذا الحوض³².

و إما بمراحل من العلاقات الودية التي طغت عليها المنفعة المتبادلة، وتقديم العلاقات الاقتصادية على غيرها. فتحت جزيرة صقلية ذات الموقع الاستراتيجي العظيم، المتحكم في المضائق الرابطة بين حوضي المتوسط، بعد جهد جهيد. ذلك أن البيزنطيين عمدوا في الماضي- على تحصينها وتسليحها لتصبح أهم معاقلهم البحرية³³، وهذا ما جعلها تصعب على الفتح الإسلامي.

لقد ارتبط فتح هذه الجزيرة بالمرابطة والجهاد البحري. وترأس عملية فتحها عالم من فقهاء زمانه ومجاهدا مرابطا ارتبط اسمه بفتحها، ألا وهو أسد بن فرات³⁴ قاضي قضاة إفريقية. خرج هذا الشيخ المجاهد وسنه سبعة وستون سنة، غازيا ومبصرا الأمة وداعيا إلى موضع الجهاد القويم- بعد مرحلة طويلة من الثورات الداخلية والتقاتل بين السلطة والجند أو بين السلطة والبربر، أي التقاتل بين المسلمين³⁵.

إن أقدم رباط تذكره المصادر هو رباط المنستير. أسس هذا الرباط من طرف هرثمة بن عيان سنة 180هـ / 796م. وهو بذلك يعد أقدم من رباط سوسة³⁶. علما أن المصادر تذكر عددا هائلا من الأربطة، واصفة بعضها ومؤكدة على تمركزها على سواحل إفريقية الشمالية³⁷ لشرقية:

يؤكد المؤرخ المشرقي ابن الأثير، أن عددا هائلا من الأربطة قد شيد* في عهد الأمير الأغلب إبراهيم بن أحمد 242 - 249هـ / 856 - 863³⁸. علما أننا نجد أقدم الإشارات حول هذه المؤسسة الدفاعية الكبرى عند اليعقوبي³⁹ حيث يذكر أن بين صفا قص وبنزرت* مسيرة ثمانية أيام على، كل مرحلة أربطة تحرس سواحلها. كما نجد عند المقدسي إشارات نافعة تتعلق بعمارة بعض الأربطة فهو يذكر مثلاً "أن أبواب رباط صفاقص وسوس قد أنشئت بالحجارة الصلدة والجير وهي علامة الجودة والصلابة في ذلك الحين. أما إذا أردنا معرفة كثافة توزع هذه الأربطة على السواحل الإفريقية فإننا نجد في نص الإدريسي⁴⁰ معلومات قيمة حيث يذكر اسم 60 رباط في تأليفه ما بين الصفحة 124 - 130 من الترجمة الفرنسية، ويؤكد أن بعض المدن المتوسطة قد اعتمدت في الدفاع عن سواحلها على أكثر من رباط. أما البكري⁴¹ فيصف عن مدينة سوسة التي كانت تحتوي على محارس كثيرة قائلاً " وخارج مدينة سوسة محارس وروابط ومجامع لصالحين وداخلها محرس عظيم كالمدينة مسور بسور متقن يعرف بمحرس الرباط هو مأوى للأخيار والصالحين داخله حصن ثاني يسمى القصبه وهو بجوف المدينة متصل بدار الصناعة بسفح الجبل الذي هو في سنده شرقي و أعلى المدينة غربي ومدينة سوسة في سند عالي ترى دورها من البحر وراء سورها هناك هيكل عظيم يسمونه البحريون الفنتاس وهو أول ما يرون من البحر اذ قصدوا من صقلية... ومن محارس سوسة المذكورة محرس المونستير الذي جاء فيه الاثر المتقدم الذكر ويذكر ان الذي بنى القصر الكبير بالمنستير..."

لم تدم السيطرة الإسلامية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط زمنا طويلا، حيث تمكنت القوى المسيحية من استرداد العديد من جزره⁴² كسردينيا ومالطا وصقلية سنة 484هـ / 1091م. نتج عن هذا الأمر تغير كبير في وظيفة الربط، التي أصبحت وظيفتها دينية، علما أن الجهاد البحري تطور بعدما ضعفت الشحنة الإيمانية التي كانت تغذيه بالمجاهدين، بل إن بعض العمليات الحربية التي كان يقوم بها المسلمون أضحت قرصنة⁴³ عانت منها السواحل الإسلامية والمسيحية على السواء.

كما أن الفاطميين لم يشجعوا الربط بل أنهم عاملوها على أساس مذهبي، فهي بالنسبة لهم حصون ومعازل تقطنها المعارضة السنية. يذكر المالكي مواقف شجاعة لعلماء المالكية⁴⁴ تجاه الاضطهاد الإسماعيلي، ويصف دور الأربطة حينئذ حيث أصبحت ملاذ للفارين من السلطة أمثال العالم الكبير سعدون، الذي التجأ إلى رباط المنستير بعدما أدخل السجن أيام الخليفة عبيد الله ولم يخرج منه إلا بعد التدخل السامي لأم هذا الأخير.

ساهمت الأربطة خلال المرحلة الفاطمية، في دعم المعارضة السنية للحكم، وكانت معازل للعلماء السنة وملجأ للفارين الهاربين من الاضطهاد المذهبي، والواقع أن المرحلة الفاطمية كانت صفحة سوداء في تاريخ الجهاد الرباطي، عرفت فيها المؤسسة ضعفا كبيرا من حيث العدة والعدد، كون النظام الشيعي عمل على محاصرتها وعلى قطع الدعم الشعبي لها.

وجاءت الزحفة الهلالية لتزيد الطين بلة، ولتعلن بداية النهاية لهذه المؤسسة الهامة التي ساهمت مساهمة كبيرة في الدفاع عن الإسلام في المغرب ضد النصارى، وفي الجهاد البحري، حيث كانت الركيزة الأساسية للسيطرة الإسلامية على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط⁴⁵. زودت الأربطة ساحات القتال البحرية والبرية على الأراضي المسيحية، بالأعداد الهائلة من المجاهدين المتطوعين في سبيل الله. لقد لعب الرباط حقا دورا عسكريا واجتماعيا ودينيا، فهو مكان

للتعلم والتفقه في الدين، وهو خلوة وجامع للمتعبدين، وهو فوق كل هذا مكان يشحذ النفوس ويزكيها، ويعبئ وينظم طاقات المجتمع ويحدد أهدافه السامية.

لقد جاءت الزحفة الهلالية لتقطع السواحل عن المناطق الداخلية، أي مجال الأربطة عن مصادر تزويده بالعدد والعدة، ولتضعف الدويلات المسيطرة على المغرب، وتجعلها تعيد تنظيم أولويتها من الناحية السياسية والعسكرية، كل هذه الأمور مجتمعة ستقضى على الوظيفة العسكرية للرباط تاركة له وظائف أخرى.

يظهر تغير وظيفة الأربطة جليا من خلال مقارنة ما جاء في كتاب البكري⁴⁶ من معلومات حول هذه المؤسسة - علما أن البكري قد ألف كتابه في النصف الأول من القرن الحادي عشر - أي قبيل الزحفة الهلالية حيث يؤكد هذا الجغرافي الطابع العسكري التطوعي لجهاد بالأربطة، ومساهمتها في فتح جزر البحر الأبيض المتوسط، والمدافعة عنها. أما الإدريسي الذي جاء وصفه لبلاد المغرب في القرن 12 أي بعد الزحفة الهلالية، فإنه يتحدث عن محارس، ولا يستعمل كلمة مرابطين في وصفه لمن يقطن هذه المحارس، بل يتحدث عن متصوفين ومتعبدين يقيمون بداخلها، كما هو الحال في المنستير التي يقطن بها على حسب قوله متعبدين يقومون بزراعة أحواز المحارس الثلاثة. وتربطهم بعرب بني هلال علاقات سليمة فهم لا يتعدون عليهم حسب الإدريسي⁴⁷ نكوتهم اشتهروا بالتعبد والتقوى. سنكتفي في هذا المقال بالبحث في أربطة إفريقية لأهميتها، ولدورها الكبير في الجهاد البحري علما أننا سنخصص مقالا آخر إن شاء الله لأربطة المغرب الأوسط والأقصى. تمكنت بعض أربطة إفريقية من التطور والازدهار معتمدة على ما يوفره لها موقعها من شروط النمو وظروفه. ولناخذ كمثال رباطي سوسة والمنستير اللذين تمكنا من تأطير مدنا اتسمت بالازدهار في العهد الوسيط وما زالت إلى يومنا من المدن المهمة في الجمهورية التونسية.

(III) أربطة إفريقية:

(أ) - رباط سوسة:

لقد لعب هذا الرباط كما سبق أن ذكرنا، دورا هاما في فتح جزيرة صقلية على الخصوص ومجموعة من جزر البحر الأبيض المتوسط⁴⁸. علما أن هذا الرباط قد نال شهرة عظيمة في القرون الوسطى المبكرة⁴⁹، لما كان له من مساهمة فعالة في الجهاد ونشر العلم. وقد استطاع هذا المعلم أن يحافظ على الكثير من هويته الأولية وصورته الأصلية مما سيسهل على الباحثين دراسته فيما بعد. يقع قصر الرباط كما يسميه التونسيون⁵⁰، حاليا في المدينة سوسة السفلى بداخل الأسوار قرب باب الشمال⁵¹، وقد بني على موضع كان مشغولا في العصور القديمة ببناءات⁵² منذ العصر الأول الميلادي. ويشير ألكسندر ليزين (Alexandre Lezine) إلى بعض المعالم التي كانت موجودة في الموضوع قبل الفتح الإسلامي، حيث يذكر من بينها وجود معبد قديم حول إلى كنيسة. كما يذكر أن التجمع السكاني الأول قد ظهر بعد مرور سيدنا عقبة بالمنطقة، وقد بني هذا التجمع على أطلال جيسنينيانوبوليس.

عمل عامل إفريقية يزيد بن حاتم في القرن الثامن الميلادي، على تحصين المدينة فأنشأ بها حصن أتخذ على حسب قول ليزين بقايا المعبد القديم كأساس له. ويظهر أن المدينة في هذه الحقبة المبكرة، كانت قليلة السكان - حوالي ألف حسب بعض التقديرات⁵⁴ - وأن هؤلاء السكان قد أشأوا مساكنهم بالقرب من الرباط، لما يوفره لهم هذا الأخير من الطمأنينة والأمن. وكان الموضع المشغول بالمدينة والرباط لا تتعدى مساحته الهكتارين، كما أن الرباط كان لا يحتوي على برج للمراقبة، وقد قام الأمير الأغلب زبادة الله بإنشاء هذا برج بعدما هدم برج الزاوية الغربية للرباط⁵⁵.

ذكرت مدينة سوسة وأحوزها في العديد من المصادر الجغرافية والتاريخية، والملفت للنظر أن بعضها كما هو الحال لابن خردادبة يذكر منطقة سوسة بدون الحديث عن المدينة والرباط⁵⁶، بينما يذكر البعض الآخر (كاليعقوبي) المدينة

بدون الإلتفات إلى رباطها⁵⁷، علما أن هذا الجغرافي كان الأكثر معرفة بموضوع الأربطة وأنه هو أول من تحدث على نظام الأربطة بالمغرب⁵⁸.

إن أكثر الجغرافيين نفعا للباحث في تاريخ عمران سوسة ورباطها يبقى المؤرخ الأندلسي البكري الذي يتقن في وصفها⁵⁹

مخطط الرباط:

نشرت العديد من الدراسات حول رباط سوسة، منها من حاولت البحث في تاريخه، ومنا من انشغلت بنموه وتطور عمرانه وعماراته، وكلها أكدت على أن الرباط الحالي كثير الشبه بالرباط الأصلي. وذلك رغم بعض الترميمات والزيادات⁶⁰. فالشكل الحالي للرباط مستطيل قريب من المربع، أطواله هي 37.70 م / 38.80 م إذا أخذت المقاسات من الواجهات الخارجية لأسواره. دعم الرباط بأبراج دائرية في زواياها الثلاثة، أي الزاوية الشمالية الغربية والزاوية الشمالية الشرقية والزاوية الجنوبية الغربية، أما الزاوية المتبقية فدعمت ببرج مراقبة علوه 15م⁶¹.

كما حوت أسوار الرباط على أبراج نصف دائرية، وضعت متناوبة مع الأبراج الدائرية، التي تشغل الزوايا. كما جاء مدخل الرباط منحني واستعمل القائمون سقطة للدفاع عليه، ذلك أن الداخل للرباط بعد اجتيازه الباب، يجد نفسه في سقفة تفتح عليها غرف الحراسة⁶¹ ومن هذه السقفة يدخل إلى فناء داخلي يحتوي عدد من الغرف بدون نوافذ. غطيت هذه الغرف بأسقف برملية الشكل. يحتوي هذا المستوى أيضا على عدد من غرف للوضوء.

أما الطابق الأول فيتكون من عدد من الغرف، استعملت للسكنى المرباطين، تربعت على ثلاثة جهات. أما الجهة الرابعة فخصصت كلها لقاعة الصلاة⁶²، التي استعملت لأغراض عديدة كالتدريس والاجتماع ولاحتواء مكتبة كثيرة الكتب. يصعد إلى الطابق الثاني عن طريق سلامين هدم أحدهم في القرن التاسع عشر الميلادي. استعملت الأسطح بجهات الأربعة كطريق للمراقبة. كما توجد على مستوى هذا الطابق مداخل لحجر الأبراج الدائرية ونصف الدائرية.

يلفت انتباه الدارس لمخطط رباط سوسة، التوظيف الثنائي لكل أجزائه، فبرج المراقبة مثلا زيادة على وظيفة مراقبة الواجهة البحرية للمدينة وأحوازها، هو منذنة للدعاء للصلاة. كما أن قاعة الصلاة تؤدي واجبها الديني وواجب تحضير العمليات الجهادية.

رباط منستير :

بنى هذا الرباط العامل العباسي على بلاد المغرب، هرثمه بن عيان في سنة 180هـ/796م، وهو حسب المحدثون باب من أبواب الجنة لمن رباط فيه أكثر من ثلاثة أيام. لقد أنشأ هذا الحصن الواسع في نفس المرحلة التي أنشأت فيها تحصينات طرابلس، في جو من القلق والخوف من إعادة تنشيط الهجمات البحرية المسيحية على سواحل إفريقية.

يعد هذا الرباط الممنستير من أقدم أربطة المغرب إنشاء، ومن أكثرها بركة وأجلها قيمة وأعمقها إشعاعا. اشتهر هذا الرباط على مر الزمن بتقوى ساكنيه وبشجاعة مرابطيه، الذين كانوا يقضون فيه مدة من الزمن مرابطين في سبيل الله ومجاهدين لنصرة دينه، يظهر بكل وضوح من نص البكري أن الحامية المقيمة في

الرباط كانت مكونة من متطوعين يمضون فترة من السنة مجاهدين في سبيل الله، بينما تكون الأربطة أقل ازدحام بالمطوعين من أكتوبر إلى ماي -أي في وقت مهيجان البحر واستحالة ركوبه من طرف المرابطين والقوى المعادية على حد سواء.

لقد وصف البكري رباط المنستير قائلا: " ومن محارس سوسة المذكورة محرس المنستير، الذي جاء فيه الأثر المتقدم الذكر. ويذكر أن الذي بنى القصر الكبير بالمنستير هارثمه بن أعين سنة ثمانين ومائة. وله في يوم عاشورا موسم عظيم ومجمع كثير، وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين الفارسية وموآجل الماء، وهو حصن عال البناء متقن العمل، وفي الطبقة الثانية منه، مسجد لا يخلو من شيخ فاضل يكون مدار القوم عليه. وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر. قال محمد بن يوسف هو قصر كبير عال داخله ريبض واسع وفي وسط الريبض حصن ثان كبير كثير المساكن والمساجد والقصبات العالية طبقات بعضها فوق بعض. وفي القبلة منه صحن فسيح فيه قباب عالية متقنة، ينزل حولها النساء المرابطات، تعرف بقباب الجامع وبها جامع متقن البناء وهو أزاج معقودة كلها وأقباء لا خشب فيها، ولها حمامات كثيرة. وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزيلة، وبقرب المنستير ملاحه عظيمة تشحن فيها السفن بالملح إلى البلاد. وبقربه محارس خمسة متقنة معمورة بالصالحين⁶³ ".

لقد أكدت الأعمال الأثرية التي قام بها الباحث الفرنسي ألكسندر ليزين ما جاء في وصف البكري، الذي أبرز أن رباط المنستير كان رباطا جهاديا ذو وظيفة عسكرية أساسية، وإنه لم يعرف نمو نسيجا عمرانيا مدنيا حوله في المرحلة الأولى من تأسيسه علما أن المرحلة الثانية من نموه هي المرحلة التي اعتمد فيها البكري على وصف محمد بن يوسف، حيث عرف رباط المنستير نموا عمرانيا سريعا، بإنشاء القسبة و الريبض. والظاهر أن رباط المنستير عرف حظا أوفر من رباط سوسة الذي ضعف دوره الإستراتيجي والعسكري بعد إحاطة المدينة بأسوار، وإنشاء قصبته على موقع أكثر تهيئة للوظيفة العسكرية.

عرف رباط المنستير تطورا سريعا، لكونه قد أسس منذ أول وهلة في موضع إمتاز بتحصينه، وحتى عندما أسست قلعة المدنية، فإنها تقاسمت مع الرباط موضعه، ومع أن القلعة عرفت العديد من التغيرات إتباعا لتطور التقنيات العسكرية. فإن الزائر للقلعة الحالية التي تبلغ مساحتها حوالي نصف هكتار، يمكنه أن يتتبع مخطط الرباط الأصلي الذي كان على شكل مربع. يوجد الرباط الأصلي وسط فناء شاسع، وهو مشابه من حيث مخططة لرباط سوسة، طول أضلعه 32.80*2.80، لكنه أبسط وأصغر من رباط سوسة، وهو محاط بسور تدعّمه أبراج في أركانه، ورغم التحويلات العديدة التي عرفها البناء الأصلي، فإنه يظهر بوضوح في الطابق السفلي: دهليز المدخل والمخازن، أما في الطابق العلوي فهناك ثلاثون حجرة خصصت لسكني المرابطين أطوالها 3*4م، كما يمتاز الفناء الداخلي للرباط بضيقه، وعلى الرغم من أن رباط المنستير كان أصغر من رباط سوسة من حيث المساحة، إلا أنه كان مهيا ليوحتوي عددا أكبر من المجاهدين.

لقد بني الرباط في مرحلة واحدة فوق أرض عذراء، وعرف توسعات عديدة حيث أصبحت مساحته تساوي 2200م² بعد ما كان لا يشغل إلا 1300م² كما عرف توسيعات أخرى في القرن العاشر والقرن الحادي عشر الميلاديين، جعلت مساحته تصل إلى 4200م².

من هذا كله يظهر أن أربطة إفريقية لعبت دورا هاما في الدفاع عن الوسع الإسلامي في مرحلة كان فيه العدو البيزنطي مسيطرا على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. لقد جاءت هذه الأربطة لتحرس الحدود البحرية للمغرب الإسلامي. كان دورها في المرحلة الأولى دفاعيا ليصبح هجوميا بعدما تمكن المسلمون من السيطرة الكلية على البحر الأبيض المتوسط وتمركزهم في أهم جزره كصقلية وكورسيكا وسردينيا... الخ

الهوامش

1 - سورة المائدة الآية

2. arcais.G, La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age, Paris P.65-67. 1946

3- الشيخ طه الولي، المدينة في الإسلام، مجلة الفكر العربي، عدد 29، بيروت، 1982، ص. 128.

- 4- OM., Rapport de l'Ifrîqiya et de l'Orient au VIII^e siècle, C.T., n°26-27, 1959, pp, 299-30. TALBI – 4
- 5- أنظر حول هذا الموضوع: ابن عبد الحكم، فتوح إفريقيا والأندلس، النص العربي والترجمة الفرنسية تحت عنوان - Conquête de l'Afrique du nord et de l'Espagne, par A. Gateau, Bibliothèque arabe –française d'Alger, 1947, texte arabe, p. 42. D'Alger, 1947, texte arabe, p.42
- 6- M. N. Khelef, L'évolution de la ville maghrébine de la conquête islamique à la fin des Almohades, études archéologique et urbaine, Thèse de Doctorat d'Etat en archéologie islamique t.1, Université d'Alger, 2003-2004 p.211.
- 7- Marçais.G, Sidi Ukba, Abū Al Mhādjr et Kusaila, C.T, n° 1, 1^{er} trimestre, 1953, pp, 11-17.
A. Mercier, Une page de l'invasion arabe : La Kahéna, Recueil de la société archéologique de Constantine, 1869, n°12, p.241.
- 8- أنظر حول هذا الموضوع: TYRAN, E., article, Gihād, E.I ancienne édition. T.II, p.553.
- 9 -DIEHL CH. MARCAIS G., *Histoire générale du moyen âge*, T.III, le monde oriental de 395-109-8, Paris, 1944, p. 166
- 10- M. N. Khelef, op, cit, p.212.
- 11-Cambuzat.P.L, L'évolution des cités du tell en Ifrîqiya du VI au X I, Alger 1986, t.I.p.43
- 12- MARCAIS G, L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954, p.29
- LEZINE .A, Deux ribat du Sahel tunisien, les cahiers de Tunisie, n°, 155, 1956, t.12, p.279.
- 13-Vonderheyden. M, La Berbérie orientale sous la dynastie des Benou –I- Arlab, 800-909, Paris, 1927, p.274- 281.
- 14- MARCAIS. G, op, cit, p.65-67. Vonderheyden. M, op, cit, p.274.
- 15- Pirenne.CH, Mohamet et Charlemagne .P.U.F. Paris, 1970.P.119.
- 16- M. N. Khelef, op, cit, p.214.
- 17- Ibn Khaldun, A, Les Prolégomènes, traduction de De Slane, Paris, 1863.p.42.
- 18- Mohammedi. A, Naissance d'une architecture musulmane au Maghreb, D.E.A. en archéologie , Université, d'Alger, 1977, p. 8.
- 19- M. N. Khelef, op, cit, p.214.
- 20- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ن القاهرة 1357 هـ / 1938 م ج.6 ص.5.
- 21- MARCAIS. G, Note sur le ribat en Bérberie, Mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident Musulman, Djait,H, et autre, Histoire de la Tunisie le Moyen age, S.T.D. Tunis, s.d., p.121. 1957, p. 25-suivantes
- 22- ابن الأثير ، المصدر نفسه، ج.6 ص.5.
- 23-Marçais.G , op,cit.p 27.
- 24-Al Bakri, Kitab al Massalik – Wa -l -Mamalik . Ce qui concerne l'Afrique du Nord a été édité et traduit par de Slane, Paris, 1965 sous le titre de : Description de l'Afrique septentrionale, texte arabe p,21 et 22.
- 25 - أنظر حول هذا الموضوع: اليعقوبي المقدسي و البكري والإدرسي وآخرون
- 26 Marçais.G, *La Berbérie musulmane*....p.67-68.
- 27- لقد تمكن العرب من دخول البحر بعدما استفادوا من تجارب الشعوب التي أصبحت تحت سلطانهم فلم يلبثوا أن شيّدوا أسطولا عظيما، هاجم قبرص سنة 649 هـ وفتح رودس و قوس. أما في بلاد المغرب الإسلامي فقد بدأ الجهاد البحري بعد استقرار معاوية ابن حديج بقرطاجة، حيث غزت قواته جزيرة قبرص وعادت محملة بالغنائم. أنظر في هذا الموضوع محمد طالبي، الدولة الأغلبية 184- 296 هـ / 800- 909 م ،التاريخ السياسي ، نقله إلى العربية الدكتور منجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 1985 ص.421.
- 28- لقد اهتم الولاة منذ المرحلة الأولى للفتح، بصناعة السفن الحربية والتجارية وآلات الحرب، لهذا الغرض وسع حسان، قرية ترتيش القديمة التي أصبحت تونس الإسلامية. وجعت منها دار كبيرة لصناعة السفن، أما عبيد الله بن الحباب فقد جعل من تونس أعظم ثغور افريقية.

- 29- أرسل عبد العزيز بن مروان إلى حسان ألف قبطي بأهله وولده إلى تريتش. وأمره بان يبني لهم دار صناعة، يضع فيها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يغار منها إلى ساحل الروم فيشغلهم ذلك عن مهاجمة القيروان.
- 30- المالكي، كتاب رياض النفوس، تحقيق الدكتور حسن مؤنس، القاهرة، 1951، ص.38.

Pirenne.CH, Op., cité, P. 119.

- 31- محمد طالبي، الدولة الأغلبية....ص.455.
- 32- ابن عذاري، البيان ج.1. ص.48_49.
- 33- Diehl, Ch. L'Afrique byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709) Paris, 1896.p.
- 34- المالكي، المصدر نفسه، ج.1. ص.186.
- 35- نفسه، ج.1 ص. 227-230.
- 36- M. N. Khelef, op, cit, p.215.
- 37- Marcais.G, op, cit, p.65.
- 38- Ibn Al Athir, Annales, TVI, p.5
- 39- Al Yaqubi, Le livre des pays, traduction Gaston de Wiet, Leyde, 1960, p.
- 40- Al Idrissi, Description de l'Afrique septentrionale, Edition, R. Dozy et J. De Goege, Leyde, 1866, Faite par H. Péres.Alger.1957
- ⁴¹Al Bakri, Description de l'Afrique septentrionale, Trad. De Slane, Paris, 1965, texte 36 trad.76-77
- 42- Khelef. M. N, op, cité. T.I. p. 216
- 43 - PIRENNE H., op, cité ,122 .
- 44 - MARCAIS, G. La Berbérie musulmane...p.141
- 45- Khelef. M. N, op, cit.T.I. p. 218
- 46- Al Bakri, op, cit ,texte , p35.
- 47- Al Idrissi , op, cit, p148.
- 48-MARCAIS G, L'architecture musulmane...p.3 et 144
- 49- Hannezo, Sousse notes historiques, Bulletin de la société archéologique de Sousse,1912., p.110 .
- 50 -ABD AL WAHHÄB H.H, - *Warakât al hadära al 'arabiya bi Ifriqiya al Tunüsiya Etudes sur certains aspects de la civilisation arabe en Ifriqiya* (Tunisie),t.II. p.24et suite
- 51-- LEZINE .A, Deux ribat du Sahel....p.150.
- 52- Hannezo, op, cit, p108.
- 53- Ibid. p. 108.
- 54- - Khelef. M. N, op, cit.T.I. p. 224.
- 55- LEZINE .A, op, cit.,p. 23-86. Ricard. P, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du et en Espagne, Paris, 1924, p.207-208.
- 56-Ibn Khuradbih, Ricard ,P. op, cit , p.227-228.
- 57-Al Yaqubi, Kitab Al Buldan , édition Geoje, p.346.
- 58- Khelef. M. N, op, cit.T.I. p. 225.
- 59- Al Bakri, op, cit, p74-75.
- 60- Khelef. M. N, op, cit.T.I. p. 227.
- 61- MARCAIS G, op, cit, p.130.

- 62- LEZINE .A, op, cit.,p. 86.
- 63-Ibidem, p. 151.
- 64- MARCAIS. G, Sousse et l'architecture musulmane, Collection « l'art des Berbères » .Les conférences visites du musée Stéphane Gsell, 1954.55.56., Alger, p.62.
- 65- Al Bakri, op, cit, texte, p.38, traduction, p.79.
- 66-Poinssot. L, Quelques édifices tunisien du Moyen Age et des temps médiévaux, Les Cahiers de Tunisie, 1875.n°75et 76.p.213
- 67-Hospinks, J, Sousse et la Tunisie médiévale, Les Cahiers de Tunisie, 1960,p.89.
- 68- Al Bakri, op, cit, texte,p.36,
- 69- LEZINE .A, Le ribat de Sousse suivit d'une note sur le ribat de Monastir, Notes et documents, Tunis 1956, p.22.
- 70- Khelef. M. N, op, cit.T.I. p. 232.
- 71- Dr Carton, Excursion et promenade, Munastir, Ruspina .B.S.A.S.1924.p.37, 1904, P.37. Guerrin, Voyage archéologique dans la régence de Tunis, Paris, 1958, t.1, p.121. Lezine.A, Deux villes d'Ifriqiya, Tunis et Sousse, Etudes d'archéologie et d'urbanisme de démographie, Paris, p 197 .